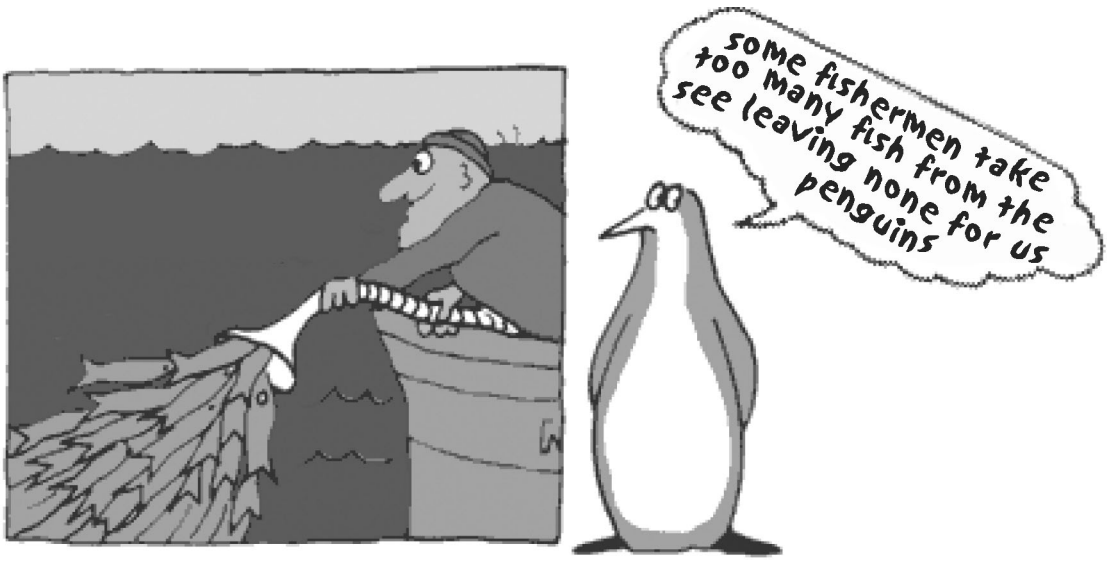


السماك الكبير يأكل كل السمك!



«بعض الصيادين يصطادون سمكاً أكثر مما ينبغي، فلا يتركون شيئاً لنا، نحن البطريق!» (www.tiki.oneworld.net/food/overfishin.gif)

ذكرنا في العدد السابق أنّ خصخصة المياه في بلادنا قد تؤدّي، كما أدّت في بلدانٍ أخرى، إلى تضخّم أسعار هذا الحقّ الإنساني الأساسي، محوّلة إياه إلى رفاهية اقتصادية. (١) ولقد أثبتت التحليلات الاقتصادية والنماذج المتعدّدة أنّنا لو تركنا توزيع المياه في عهدة اقتصاد السوق فسيتوزع بطريقة لا تتوخّى إلاّ الحدّ الأقصى من الأرباح. والحال أنّ «إدارة» توزيع المياه على هذه الشاكلة تدفّع بالعجز المائيّ على مستوى الكون إلى أوضاعٍ أسوأ ممّا هي عليه.

وكنا قد ناقشنا سابقاً أيضاً أنّ ما يسمّى بـ «لبرلة» اقتصادنا، وهي تتمّ من خلال اتفاقات التجارة المتعدّدة الأطراف (وتتضمّن إلغاء التعريفات والمعونات المحلية وغير ذلك من وسائل لحماية مزارعنا الصغار)، قد أضعفت، هنا وفي غير مكانٍ أيضاً، المزارع الصغيرة، وأوهنت سيادتنا الغذائية الوطنية والقومية. (٢)

❖ أستاذة مساعدة في قسم العلوم في جامعة البلمند. عنوانها الإلكتروني: rania@ourwords.org، وعنوان مدوّنتها: www.greenresistance.wordpress.com

١ - رانية المصري، «جفافٌ وعطشٌ وجوعٌ»، الآداب ١٠ - ٢٠٠٧/١١.

٢ - رانية المصري، «أيّ استقلال نريد؟» الآداب ٧ - ٨ - ٢٠٠٧/٩.

والآن علينا أن نسأل: ماذا عن بحارنا؟

هنا، من جديد، يُأكل السمك الكبير السمك الصغير. والسمك الكبير في هذه الحالة هو الشركات المتعددة الجنسيات، معززة بالغذاء التعريفات، ومدعومة بمعونات حكومات تلك الشركات. أما السمك الصغير فهو صيادو الأسماك الحرفيون، والتنوع البيئي داخل المحيطات والبحار، واقتصادات البلدان النامية، والأمن الغذائي لملايين البشر. والحق أن السياسات التي ألحقت وتلحق الخراب بالمياه والمحيطات في العالم ألحقت وتلحق الخراب بالمياه والمحيطات في العالم أيضاً.

إن الطلب على المأكولات البحرية يزداد: فقد ارتفعت وتيرته أكثر من الضعف منذ العام ١٩٧٣ (وتتحمل الصين المسؤولية العظمى عن هذه الزيادة)، والسمك والمنتجات السمكية هي أكثر الأطعمة أضراراً في العالم^(١)، لكن، على الرغم من أن أكثر من نصف قيمة هذه التجارة يُنجم من الدول النامية، فإن غالبية أرباح التجارة المذكورة هي في الدول المتقدمة التي تصنع السمك.

وأما عرض المأكولات البحرية فينخفض بشكل مريع، إلى حد أن علماء البيئة يحذرون من أن العالم سيفرغ من المأكولات البحرية في غضون ٤٠ عاماً تقريباً إن نحن واصلنا إفراطنا في صيد السمك. كما أن الباحثين يحذرون من أن ٩٠٪ من السمك البحري الحالي (بما في ذلك الطون والمرلين وأبو سيف sword fish) والقشريات (crustaceans)، والمحار (shellfish)، وغير ذلك من الأنواع المأكولة اليوم، قد تختفي في غضون الفترة نفسها^(٢)، وبكلام آخر، فإننا ندفع بغالبية الأنواع البحرية إلى الموت الأبدي.

كيف يحدث ذلك؟ يحدث كالتالي: من أجل الوفاء بالطلب المتزايد على السمك - ولا سيما الطون، والقريدس، والسلمون، والسردين - تُعمد المصانع السمكية الكبرى إلى وسائل صيد لا تستنزف الأنواع المستهدفة بالصيد فحسب، بل وتقتل أيضاً

كائنات بحرية أخرى، وتدمر في الوقت نفسه أنظمة بيئية رقيقة كالحيود (reefs) الموجودة في أعماق البحار. فحوالي ربع ما يُصطاد على مستوى الكون يعاد قذفه إلى البحر، ميثاً أو في سبيله إلى الموت، على اعتباره «صيداً عرضياً» (bycatch) أو «أضراراً جانبية غير مقصودة» (collateral damage). إلا أن «الصيد العرضي» بالنسبة إلى القريدس تحديداً قد يبلغ ٢٠ كيلوغراماً لكل كيلوغرام من القريدس؛ وفي الخليج العربي تبلغ نسبة القريدس إلى القريدس «العرضي» ١ إلى ٤؛^(٣) كما ألحقت وسائل صيد القريدس الضرر البالغ بسلاحف البحر بشكل خاص. أما على مستوى الكون فإن وسائل الصيد المتبعة تقتل ملايين الحيوانات البحرية كل يوم، وجميعها يُعتبر «أضراراً جانبية»؛ ويشمل ذلك: ٣٠٠ ألف حوت صغير ودلفين وخنزير بحر (يقتل واحد منها كل دقيقتين)، وأكثر من ٢٥٠ ألف سلحفاة بحرية من ذوات الرؤوس الضخمة والظهور الجلدية، و١٠٠ ألف قرش في البحر الأبيض المتوسط وحده.

ثم إن زوال كل هذه الكائنات البحرية - المستهدفة بالصيد، والجانبية غير المقصودة معاً - يعني تعريض ملايين الأرزاق للخطر. فمن أصل ٥١ مليون صياد سمك، ٥٠ مليوناً يعيشون في الدول النامية. كما أن ما لا يقل عن ٣٤ مليون شخص في العالم ممن يتقاضون أقل من دولار في اليوم يعيشون من صيد السمك. وبالنسبة إلى المجتمعات الساحلية الفقيرة، فإن قضية الوصول إلى المصادر السمكية وحفظها مسألة حياة أو موت. ثم إن «تصنيع البحار» يهدد الوسائل التقليدية التي يستخدمها صيادو تلك المجتمعات لدعم عائلاتهم، وقد يهدد صيادينا نحن أيضاً على الأرجح. وهذا ما يشرحه سعيد، وهو صياد مصري يبلغ من العمر الثامنة والسبعين ويمارس صيد السمك منذ كان في السابعة، بالقول: «من يعاني يعاني إلى أقصى الحدود، ومن كان ميسوراً كان ميسوراً إلى أقصى الحدود»^(٤) (بكلام آخر، إنها الرأسمالية في أعتى

١ - Food and Agricultural Organization (FAO) of the United Nations, **The State of World Fisheries and Aquaculture. Part 2: Selected Issues in Fisheries and Aquaculture** (Rome, 2007). <http://www.fao.org/docrep/009/A0699e/A0699E00.HTM>

والرابط العربي: <http://www.fao.org/docrep/009/a0699a/a0699a00.htm>

٢ - Juliet Eilperin, "World's Fish Supply Running Out, Researchers Warn," **Washington Post**, November 3, 2006.

٣ - Food and Agricultural Organization (FAO) of the United Nations, **A Global Assessment of Fisheries Bycatch and Discards** (Rome, 1996). <http://www.fao.org/docrep/003/T4890E/T4890E00.HTM>

٤ - Ray Bush and Amal Sabri, "Mining for Fish: Privatization of the 'Commons' Along Egypt's Northern Coastline," **Middle East Report**, 216 - Fall 2000. http://www.merip.org/mer/mer216/216_bush-sabri.html

نحو فكر بيئي تقدمي (٣)

وفي أماكن متنوّعة تنوّع سواحل أفريقيا الغربية،^(٢) ومصر،^(٣) وعمّان،^(٤) وباكستان،^(٥) والبرازيل، وتايلاند،^(٦) وعشرات السواحل الأخرى.

غير أنّ السمك الكبير في هذه الحال ليس فقط مراكب الصيد الصناعية الضخمة، الأجنبية بشكل أساسي، والضالعة في ممارسات تدمّر البيئة، كاستخدام الشباك الضخمة في أعماق البحر (trawling) (وهو ما يُقَرُّ بأنه أكثر ممارسات صيد السمك تدميراً)، بل هو أيضاً شراً السمك الكبار. وقد شرّح تقرير منظمة الغذاء والزراعة (FAO) لعام ٢٠٠٦، وهو بعنوان حالة الموارد السمكية وتربية الأحياء المائية في العالم، أنّ العولة الاقتصادية تسببت في انبثاق أعداد قليلة وقوية من مصانع الغذاء المتمركزة في الدول الصناعية. وقد زادت هذه المصانع من حُرْف القوة من الصيادين إلى الشراة الكبار. (وبكلام آخر، فإنّ ما يحدث للمزارعين على الأرض يحدث أيضاً لصيادي السمك).

لم ينج البحر الأبيض المتوسط من هذا النهب الاقتصادي، وأفضل طريقة لفهم ما يحدث هنا هي من خلال رؤية ما يحلّ بسمك الطون المتوسطي الأزرق الزعانف (blue-fin tuna)، الذي يُستحب استخدامه في ذلك الطعام المعولم العصريّ المسمّى «السوشي».

تكتب جريدة نيويورك تايمز ما يلي:

«اعتبر سمكة [الطنون] المتوسطية، ذات الزعانف الزرق، بمثابة سوشي ضخمة، زنة ٨٠٠ باوند، من أفضل وأسمن وأثمن ما يوجد منذ السبعينيات، حين [انفجرت] موجة السوشي...، لاحقاً قنّاصو السمك سمكة الطون الضخمة بطائرات استكشاف في كلّ محيطات العالم. ولقد نجحوا بشكل لا يرحم: إذ انخفض تعداد الطون بنسبة تفوق ٩٠٪ في السنوات الثلاثين الأخيرة.»^(٧)

مراحلها: إذ تتوزع الثروة من الفقراء إلى الأغنياء.^(١)

غير أنّ السمك ليس مجرد بضاعة للتجار، وإنما هو غذاء أساسي لبلايين البشر، ومصدر مهم للبروتين الحيواني في الدول الفقيرة. وعليه، فإنّ زوال الأنواع السمكية البحرية يعني خطراً إضافياً على حياة بلايين البشر (وهذا قد يشمل حياة مجتمعنا نفسه).

ولا يقتصر الأمر على أنّ السمك محض مصدر حاسم لحياة البلايين ولأرزاقهم. فالحال أنّ هذه الأنواع البحرية غني بيولوجي حاسم للمحيطات والبحار أيضاً؛ بل هو غني يفوق غنى الحياة على سطح الأرض نفسها.

والآن كيف تؤثر الاتفاقات التجارية على الإفراط في الصيد؟

إنّ لبرلة التجارة، أو «تحريرها»، بتشجيع وتخطيط من لدن «منظمة التجارة العالمية» و«الوكالة الدولية للتنمية البشرية» (USAID)، قد خفّضت (أو ألغت) التعريفات، وسمحت لمراكب الصيد الأجنبية الصناعية (أي الضخمة) بالدخول إلى مناطق الصيد المحليّة، وأزحّت (أو ألغت) الضوابط على ممارسات الصيد المؤذية. وفي هذه الأثناء تُواصل الدول الصناعية (وتحديداً الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة واليابان) دعم مصانعها السمكية بشكل فاضح، واضعة إياها في موقع أفضل بعدد بكثير من موقع الصيادين الصغار المحليين. والحصيلة؟

الحصيلة هي تقلص مخزون السمك، وانخفاض السمك الذي يصطاده الصيادون المحليون (الأصغر)، وتهديد الأمن الغذائي، وتعرّيش التنوّع البيئي للخطر، وإلحاق الضرر الفادح بالسواحل البيئية. وهذا كلّ حدث ويحدث على مستوى العالم،

١ - Holly Sklar, "Billionaires Up, America Down," ZNet Daily Commentaries, November 9, 2007.

<http://www.zmag.org/sustainers/content/2007-11/09sklar.cfm>

٢ - GEO-4, Global Environment Outlook: Environment for Development, United Nations Environment Program, October 25, 2007. <http://www.unep.org/geo/>

٣ - Ray Bush and Amal Sabri, opcit.

٤ - "Oman Fisheries Plans Investment in Shrimp Farming Sector," Oman Daily Observer. October 27, 2007.

٥ - Annie Kelly, "Net losses," The Guardian, April 11, 2007. <http://www.guardian.co.uk/environment/2007/apr/11/food.fish>

٦ - Annie Kelly, "Market Forces," The Guardian, April 11, 2007. <http://www.guardian.co.uk/environment/2007/apr/11/food.wto>

٧ - "The Bluefin slaughter," (Editorial), The New York Times, November 17, 2007.



www.cutthebait.org

OCEANA | Protecting the World's Oceans

أوقفوا دعم الإفراط في الصيد (www.oceana.org)

ولاسيما قتل الأنواع السمكية غير المستهدفة بالصيد، أي التي التُقطت عَرَضًا أثناء الصيد، هو السببُ الأساسُ لذلك الانخفاض الدراماتيكي. يقول منسقُ اللائحة الحمراء المتوسطة في مركز IUCN للتعاون المتوسطي:

«إنّ القلق الأساس ليس على كلّ نوع على حدة فحسب، رغم أهميّة هذه الأنواع، بل على الوقوع الإجمالي لخسارة التنوع البيئي هذه. إنّنا نلاحظ تحولاتٍ خطيرةً سيكون لها تبعاتٌ ضخمة، مع الوقت، على حياة الحيوانات كلّها، وفي النهاية على أرزاقِ الناس على ضفاف البحر المتوسط.»^(٥)

كيف سيكون وقع ذلك على أرزاق صيادي السمك اللبنانيين؟

المشكلة في محاولة الإجابة عن هذا السؤال هي أنّ المعطيات غيرٌ موجودة أو غيرٌ دقيقة. فمثلاً، ليس لدى صيادي السمك في شمالي لبنان، ولا لدى تعاونياتهم ونقاباتهم، أدنى فكرة

بعبارةٍ أخرى، على ما صرّخت بصوتٍ عالٍ تقاريرٌ متواليةٌ خلال الأعوام السابقة، فإنّ «الطنون في البحر الأبيض المتوسط وشرقيّ المحيط الأطلسي يُقارب الانقراضَ بسبب الصيد المنتشر المحظور.»^(١)

فماذا كان ردُّ «المفوضية العالمية للحفاظ على طنون المحيط الأطلسي»؟ لا تأبهوا للعلماء، واحصروا اهتمامكم بالأرباح الاقتصادية القصيرة المدى التي تجنيها الشركات الكبرى! بل إنّه، بعد تقارير غير مسبوقَةٍ عن الإفراط في صيد السمك، وبعد أن كُشِفَ بحثٌ عالمي أنّ ٥٠ ألف طنّ من الطنون تُسحب من مياه المتوسط سنويًا - وهو ما يتجاوز الكوتا (الحصة) المسموح بها، أي ١٥ ألف طنّ^(٢) - عَقَدت هذه المفوضية اجتماعًا في منتصف تشرين الثاني ٢٠٠٧ ووافقت على منح كوتا أعلى يُسمح للبلدان بصيد الطنون. وبحسب ما جرّم به أحد ناشطي منظمة غرين بيس (السلام الأخضر) في مجال الدفاع عن المحيطات، فإنّ «سمكة الطنون الشمالية ذات الزعانف الزرق في طريقها إلى الانقراض، [لكن] ذلك الاجتماع لم يستطع وإن مجرد تخفيض السرعة القصوى.»^(٣)

مع انهيار أعداد الطنون، ومع تصاعد الطلب عليه، زادت شعبية «مزارع السمك» (التي يُزعم أنّها «تنمّي» السمك بدلاً من اصطاده في البحر). غير أنّ عمليات «التنمية» الضخمة هذه في البحر الأبيض المتوسط ليست أقلّ تدميرًا من مراكب الصيد في البحار الواسعة. «فالمزارع تلتقط أسماكها على طبيعتها، يافعةً وصغيرةً. ويجري تسمين الطنون في الحظائر، باستخدام كمياتٍ ضخمةٍ من السمك الأصغر...»^(٤)

وليس الطنون وحده هو ما يتعرّض للخطر. بل إنّ البحر الأبيض المتوسط يتحوّل بأسره إلى مقبرة بسبب الأعداد العالية جدًا من سمك القرش والراي المهددة في العالم. إنّ الإفراط في الصيد،

١ - "Overfishing is Driving Bluefin Tuna to Commercial Extinction," **The Independent**, November 18, 2005; and Stefan Lovgren, "Bluefin Tuna in Atlantic Nearing Extinction, Conservation Group Says," **National Geographic News**, July 24, 2006.; and Richard Black, "No Cuts for Mediterranean Tuna," BBC News, November 19, 2007.

٢ - Agence France Presse, "Greenpeace Slams 'Unsustainable' New Tuna Quota," November 19, 2007.

٣ - Richard Black, opcit.

٤ - "The Bluefin Slaughter," opcit.

٥ - "Mediterranean Sea: Most Dangerous Place on Earth for Sharks and Rays," IUCN: The World Conservation Union, November 15, 2007. http://www.iucn.org/en/news/archive/2007/11/16_pr_sharks.htm

زاد تحوُّلُ جهود الصيد المحليّ باتجاه التصدير. وأما على مستوى الكون، فإنّ اللبيرة (تحرير التجارة) سيزيد الضغط من أجل نقل الطعام من أطباق فقراء بلدان الجنوب إلى التصنيع الغذائيّ السمكي. (٢)

ونحن هنا، في لبنان، لن نكون محصّنين من تلك التبعات.



عليّ أن أتوقّف الآن عن النقاش المؤسّساتي المتعلّق بالسياسات التجارية وتجمّعات الصيادين والمصانع السمكية، لأطرح سؤالاً شخصياً هو التالي:

إذا كان الاقتصادُ هو المسؤول هنا، فإنّ علينا أن نسأل أنفسنا عمّا يَكشفه هذا الإفراط المتواصل في صيد الحيوانات والأسماك، والإفراط المتواصل في الاستهلاك، من صورٍ عن نمط حياتنا. وبالمناسبة، فإنّ هناك مطعمٍ سوشي آخر سيُفتتح عمّا قريب في شارع الحمراء في بيروت، وسيقدّم السوشي على حزامٍ نَقال. خذْه بسرعةٍ خذْه فوراً.

إلا أنّ علينا ألا نأكل كلَّ هذا السوشي، وبكلّ هذا الاستعداد والسهولة، وبكلّ هذا الرخص (تماماً مثلما أنّ علينا ألا نأكل قريداً أو سلموناً بهذا الرخص).

وفي هذا، علينا أن نتذكّر مشكلتنا الأساسية، وهي أنّ ما يسمّى بالسوق «الحرّة» لا تمارس الاعتدال. فالى أن نغيّر سياسات سوقنا، أفلا يجب أن نُفرض اعتدالاً على ممارساتنا الشخصية؟ أليس علينا، لمصلحة صغار صيادينا، واستمرار الأنواع البحرية على قيد الحياة، وصحة أنظمتنا البيئية البحرية، أن نُفرض شيئاً من الاعتدال الشخصي على عاداتنا الاستهلاكية نفسها؟ أم تراني، بمجرد الحديث عن الاعتدال الشخصي، قد نطقتُ بخطيئةٍ كبرى؟

بيروت

عن الإنتاج السنوي من السمك وعن قيمته. غير أنّنا نعلم فعلاً، وبالأستناد إلى معطيات جمّعها معهد البيئة في جامعة البلمند من خلال بحث ميداني واسع، أنّ «مصانع السمك اللبنانية ما زالت تقليدية»، ولا تشكّل ضغطاً كبيراً على المناطق الساحلية الشمالية، باستثناء بعض المناطق التي يمارس فيها الصيد بالرُمح (spear fishing) وتُستخدم فيها شبكات الصيد المحظورة بسبب ضيق ثقبها (الأمر الذي يودّي إلى أن يعلّق بها السمك الصغير). ويحتوي قطاع صيد الأسماك في شمالي لبنان على حوالي ١٠٠٠ - ١٤٠٠ مركب صيد، ويشغّل أكثر من ٣٣٠٠ صياد سمك، ويصطاد سنوياً حوالي ٥٨٠٠ طنّ من السمك بقيمة قدرت بـ ٢٧,٧ مليون دولار عام ٢٠٠٥. (١)

ومع ذلك، وبرغم غياب المعطيات الكافية في لبنان، فإنّ لدينا من المعلومات في العالم ما يكفي ليجعلنا نتنبأ، وبوضوح، بمصير صيادي السمك في البحر الأبيض المتوسط إن تواصل الإفراط الصناعي في الصيد (مثلما هو الحال الآن).

إنّ التحرير المتواصل لتجارة السمك والمنتجات السمكية (وهي سياسة تروّجها منظمة التجارة العالمية كما ذكرنا) لن يُفيد اقتصادياً (على المدى القصير) إلا عدداً صغيراً من الدول المتقدّمة المصدرّة للسمك - أو سيفيد، بشكل أكثر تحديداً، عدداً صغيراً من المصانع في عددٍ صغير من الدول المتقدّمة المصدرّة للسمك. ولن تستفيد من ذلك أيّة دولة أخرى. بل الأرجح أن تستنفد الدول النامية (أو تسمح بأن تستنفد) ما تبقى من الأنواع البحرية، الأمر الذي سيزيد الخسارة الكبيرة الحاصلة أصلاً في التنوع الجيني والبيئي ويُفوّض أساس قيام نظام بيئي صحيّ ومُنتج. وبالنسبة إلى المستهلكين في العالم النامي، فإنّ أسعار السمك سترتفع في بلدانهم كلّما

١ - Fadi M. Doumani, "Economic Valuation of the Lebanese Northern Coast," **Integrated Management of East Mediterranean Coastlines - IMAC** (Institute of the Environment. University of Balamand, July 2007).

٢ - "Trading Away our Oceans: Why Trade Liberalization of Fisheries Must be Abandoned," **Greenpeace**, January 2007. <http://oceans.greenpeace.org/raw/content/en/documents-reports/tradingaway.pdf>